الفصل السادس

مؤتمر بروكسل

(سبتمبر سنة ١٩١٠م)

رأيت مما تقدم في الفصول السابقة كيف أن جهاد محمد فريد لم يقتصر على بثِّ روح الوطنية، ورفع علم المقاومة في مصر؛ بل تخطَّى حدودها للدفاع عن قضيتها في الخارج، بمقالاته وأحاديثه في الصحف، وخطبه في المحافل والمجتمعات.

وأعظم مظهر لهذه النوع من الجهاد، هو مؤتمر بروكسل، فقد اعتزم في سنة (١٩١٠م) عقد مؤتمر وطني بباريس دعا إليه أكبر عدد من رجال السياسة والأدب والاقتصاد في أوربا لكي يسمعهم صوت مصر، ويطلع العالم الأوربي على أحوالها وحقائقها، ولكي يقف الملأ على ما عمله الاحتلال فيها، ويتحقق كذب المفتريات التي تذاع عن مصر وعن الحركة الوطنية، وقد اختمرت الفكرة في ذهنه أوائل تلك السنة، فعمل على إخراجها إلى حيز التنفيذ، فكان أن تألفت في (أغسطس سنة ١٩١٠م) لجنة من بعض رجال الحزب الوطني البارزين لتنظيم أعمال المؤتمر والدعوة إليه، وأعضاؤها يوسف بك حافظ أمين الصندوق، وأحمد بك لطفي وكيل الحزب، ومحمد بك علي علوبة (باشا)، وعبد اللطيف بك الصوفاني، وعلي بك المنزلاوي، ومحمود بك الشيشيني، وعلي بك فهمي كامل، والدكتور منصور رفعت، وحسن بك عمار، وحامد بك العلايلي، وفؤاد بك حسيب.

وتحدد لانعقاد المؤتمر بباريس (يوم الخميس ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٠م) واتخذت لجنة تنظيم المؤتمر مكتبًا لها بباريس بشارع جليله GALILEE رقم ٦٣، واستأجرت القاعة العلمية الكبرى رقم ٢٨ بشارع سربون SERPONT لعقد جلسات المؤتمر.

دعوة الأمة إلى تأييد المؤتمر

ودعا المترجم الأمة إلى تأييد المؤتمر، وكتب في هذا الصدد مقالة نفيسة تحت عنوان: «إلى الأمة المصرية» بعث بها في أواخر أغسطس من باريس؛ إذ كان يعد المعدات لعقد المؤتمر، أظهر فيها فوائده ومزاياه، مع نبذة عن المؤتمرات التي عقدها الحزب الوطني، وعرج على أخلاق الأمة، فدعا إلى التحلي بالشجاعة الأدبية، لكي تقوى الحركة الوطنية، قال:

«علمت الأمم فوائد المؤتمرات من زمن مديد؛ فهي أحسن واسطة للتفاهم والمناقشة، وما الحج إلى بيت الله الحرام إلا مؤتمر إسلامي دوري يجب أن يكون مُلتقى للمسلمين في كل جهة للبحث في شئون الإسلام والمسلمين، ولقد أوجد الإسرائيليون شيئًا من هذا القبيل بتأسيسهم الجمعية الصهيونية، التي لها فروع في كل أنحاء العالم، ولها اجتماع سنوي في إحدى المدن الأوربية. ولكننا أهملنا كل شيء من أمور ديننا، حتى الأمور الاجتماعية، ولو استعمل الحج لما وضع له، لما وصل التفرق بالمسلمين إلى هذه الدرجة.

ولقد شعرت الأمم المهضومة الحقوق بضرورة هذه المؤتمرات، فأقامت لها اجتماعات دورية تابعة لظروف الأحوال، وقد فكرنا في مثل هذا المجتمع من زمن مديد، وكنا نكتفي بمؤتمرنا الوطني الذي نجمعه بمصر في ديسمبر من كل سنة، وقد اجتمعنا فعلًا في ديسمبر سنة (١٩٠٨م)، وفي (يناير سنة ١٩١٠م) وكان لاجتماعاتنا هذه التأثير المطلوب، حيث برهنت على قوة الحزب، وانتشار مبادئه في جميع أرجاء البلاد، بالرغم من محاربة الحكومة».

ثم أبان ضرورة جمع مؤتمر في إحدى العواصم الأوربية لإيقاف أوربا على حقيقة الحالة في مصر، وهدم ما شيده رجال الاحتلال من الأباطيل لدى العالم المتمدين، والدفاع عن القضية الوطنية، وأوضح أن المؤتمر سيجتمع في باريس في ٢٢ سبتمبر المقبل، والأيام التالية له.

ثم قال: «فإليك أيتها الأمة أسوق الحديث، وأطلب من كل من يقدر من أبنائك على الحضور إلى مؤتمرنا التعجيل بالسفر، ومن عاقتهم أشغالهم أو خشوا غضب الحكومة عليهم، وشطب أسمائهم من جدول من يحشرون في المحطات والسرادقات، لمقابلة كل عظيم يمر عليهم إظهارًا لولاء كاذب وإخلاص موهوم، فليرسلوا أبناءهم، لتعلم أوربا أننا شعب يستحق الحرية حقيقة، ويدرك معناها وأهميتها. يا قوم إنكم تسيئون إلى وطنكم بهذه المظاهرات التي يدبرها بعض كبار الحكام طمعًا في الوزارة، وتوهمون العالم بأنكم لا تعرفون قدر أنفسكم؛ مع أنَّ الإنجليز أنفسهم عارفون حقيقة الأمر، ومقتنعون بحقيقة ما ننادي به، ولكنهم يتوكأون على إحجام بعضكم عن تعضيد الحركة الوطنية، أو إخفائكم إحساسكم الشريف، وعدم إظهاره مرضاة لكبار الحكام الذين يعلمون حقيقة ما في صدوركم، ويضحكون من تصرفكم الغريب، الدال على ضعف في العزيمة، ونقص في الشجاعة الأدبية. يا قوم، إني أعرف الكثيرين من أعيان البلاد وسراتها، ممن يميلون كل الميل إلى الحركة الوطنية، ولكنهم لو سئلوا عن آرائهم السياسية لسكتوا، أو أجابوا بأن أشغالهم لا تسمح لهم بالاشتغال بالسياسة، وبعضهم لا يكتفي بذلك؛ بل ربما طعن علينا، ورمانا بالتهور، إرضاءً لمخاطبه، فانفضوا عنكم هذا الضعف، وأظهروا فكركم بكل شجاعة، واشتركوا في المؤتمر الوطني، حتى تمثل فيه جميع طبقات الأمة، ويكون لصوته صدى في جميع الأنحاء، وليعلم العالم أننا أمة حيَّة، لا تقبل الاحتلال الأجنبي، ولا ترضى بسلطة الحكومة المطلقة».

وبذل الفقيد وأنصاره جهدًا كبيرًا في تنظيم المؤتمر وإعداد موضوعاته ودعوة أقطاب السياسة في مختلف البلدان إلى الاشتراك فيه، لكي يأخذ مكانه اللائق به، فيكون في أبهى صورة وأروع مظهر. وقد قبل الدعوة له صدور من صفوة رجال السياسة والأدب والاجتماع؛ فمن فرنسا: مدام جولييت آدم، وقد منعها المرض من الحضور، والمسيو بوكييه العضو في مجلس النواب، والمسيو بوفيزاج BEAUVISAGE العضو في مجلس الشيوخ، والمسيو كولان العضو في مجلس النواب والمسيو جرفيه

كرتلمون، والبارون جو دفروادي كندي، والمسيو جاسباران العضو في مجلس النواب، والمسيو لاجرديل مدير مجلة الحركة الاجتماعية، والمسيو رويسان الأستاذ بجامعة بوردو، والمسيو جوستاف روانيه، والمسيو أوجانيور AUGAGNEUR العضوان بمجلس النواب.

ومن إنجلترا وأيرلندا: المستر كير هاردي KEIR HARDIE زعيم حزب العمال، والمستر ويلفرد بلنت WELFRED BLUNT نصير المسألة المصرية، والمستر برنز، والمستر ديللون، والمستر كتل، والمستر هازلتون، أعضاء مجلس العموم.

ومن ألمانيا: المسيو هوبتمان HAUPTMANN العضو بمجلس نواب بروسيا، والبارون فندلاند ياور ملك بافاريا، والدكتور هوفر HOFER عضو مجلس الرشستاج الألماني، والدكتور وايجلت WEIGELT الأستاذ في الحقوق، والذي صار المستشار القضائي للبنك الألماني، ورئيس لجنة التموين العليا بألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

ومن المجر: الدكتور جرسوين العضو ببرلمان المجر، ومن إيطاليا: السنيور دجوبرناتي DEGUBERNATI عضو مجلس الشيوخ، والسنيور بوجيانو دكتور في الحقوق، ومن النرويج: المسيو جون لند مدير البنك النرويجي ومدير الجمارك بالنرويج ورئيس البرلمان سابقًا، ومن الروسيا: الكونتيس كستيكا، وسليم بك بيبيتوف، والأمير والأميرة كتشوبي، ومدام كتشد كوفا، الحائزة للدكتوراه في العلوم الاقتصادية، وغير هؤلاء عشرات من رجال القانون، ومشاهير الأطباء والمهندسين والكتاب، من بلجيكا ورومانيا والسويد وتركيا، وعشرات من الهنود والهنديات، نذكر منهم: المستر كرشنا فرما، الزعيم الهندي صاحب جريدة (إنديان سوسيولوجست)، ومدام كاما محررة جريدة (باندماترام)، ومدير جريدة ذي تلفار الهندية.

وقد قبل رئاسة الشرف كل من: المستر بلنت، والمستر كير هاردي، والمسيو أوجانيور النائب عن مدينة ليون الفرنسية، والسنيور دجوبرناتي، العضو في مجلس شيوخ إيطاليا.

منع المؤتمر بباريس، وانعقاده ببروكسل

وبينما كان المؤتمر يوشك أن ينعقد، قررت الوزارة الفرنسية -وكان يرأسها المسيو بريان BRIAND- منع عقد المؤتمر بباريس؛ مجاملة للحكومة البريطانية، وإرضاء لها.

وأبلغ المسيو تيسييه TISSIER مدير مكتب المسيو بريان الفقيدَ أسباب هذا القرار بقوله: «إن مؤتمركم له صبغة سياسية، فهو يرمي إلى المطالبة باستقلال مصر بإجلاء الإنجليز عنها؛ في حين أن الحكومة الفرنسية متعهدة في الاتفاق الودي سنة (١٩٠٤م) أن لا تطالب إنجلترا بشيءٍ من هذا القبيل، فالسماح بعقد مؤتمركم يمكن أن يعتبر منافيًا لروح الاتفاق الودي».

فاعترض الفقيدُ على هذا البلاغ؛ ولكن ذهب اعتراضه سُدًى أمام إصرار وزارة بريان على ما قررت.

كان لقرار الحكومة الفرنسية وقع أليم في نفوس المصريين؛ إذ ما كانوا يعتقدون أن باريس -مهد الحرية، ومشرق النور- يضيق صدرها بقيام المؤتمر المصري فيها، وهي التي تئوي الثوريين والفوضويين، بَلْه الأشرار والمجرمين، ولكن تحالف الاستعمار وتآمره قد وضع الحركة الوطنية أمام هذا القرار الجائر، وكاد اليأس من انعقاد المؤتمر يستحوذ على النفوس، وذلك لضيق الوقت، وكثرة ما ذهب من النفقات في سبيل إعداد معداته بباريس، ولكن همة الفقيد وزملائه قد تداركت الأمر بحزم، فانعقدت لجنة المؤتمر على الفور، وقررت إقامته في مدينة بروكسل في الموعد الذي كان محددًا له بباريس، وكان الوقت لا يتسع حقًّا لذلك؛ لأن قرار المنع قد أبلغ للرئيس، قبل الموعد المحدد لانعقاد المؤتمر بأسبوع، ومع ذلك، فقد تذرع المترجم

وأعضاء لجنة المؤتمر بكل ما لديهم من عزيمة وهمة، حتى اجتمع في بروكسل في الموعد نفسه، فكان انعقاده بها فوزًا كبيرًا للحركة الوطنية، وإحباطًا لمكايد السياسة الاستعمارية.

وأقام الفقيد قبل مغادرته باريس حفلة بفندق الإليزيه بالاس يوم (٢١ سبتمبر) ليتعارف فيها أعضاء المؤتمر وضيوفه، وكانت هذه الحفلة ضمن برنامج المؤتمر، فأقامتها اللجنة قبل الرحيل عن باريس؛ إذ لم يشملها قرار المنع، وقد حضرها كثير من مندوبي الأمم، ونواب البرلمانات الأوربية، وعدد كثير من الهنود والشرقيين، وكانت من أفخم الحفلات وأروعها.

صوت الشعر

قصيدة خليل مطران

ونظم شاعر القطرين خليل مطران قصيدة بليغة، ناجى فيها أولئك الذين اغتربوا عن مصر لحضور هذا المؤتمر، يحدوهم الأمل الصادق لخدمة الوطن، قال:

أتراه فوق مناكب الأدهار ... شفق تخلف عن بديع نهار[1]
حُقب دجت منها السفوح ولم يزل ... فوق الذرى منها بريق نضار[2]
يا مغرب الماضي أما من آية ... فتعود في سحر من الأسحار[3]
هدا صباح مقبل من غيبه ... فتبينوه يا أولي الأبصار
تجد العيون على نواصي أفقه ... ضوءًا تألق من وراء ستار

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم، وأنها باقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق؛ أي النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.

(٢) الحقب: السنون. ودجا: أظلم. والذرى: جمع ذروة أعلا الشيء. والنضار: الذهب؛ أي أن عهود التأخر قد تركت ظلامًا مخيمًا على البلاد، ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التي غربت.

(٣) السحر: الفجر، أو قبل الصبح. يتمنى الشاعرُ عود المجد القديم بآية جديدة.

سحر الرجاء بدا لكم وإزاءه ... شفق البقية من على وفخار[١]
شقان من حلي أغر تصوغه ... تاجًا لمصر أنامل المقدار[٢]
تاج ستلبسه الفتاة مخلفًا ... عن أمها في سالف الأعصار
ويكون عن آياته وشُعاعه ... آيات مجد رجالها الأخيار
نجباء مصر الواترين لعزها ... وجلالها من ذلة وصغار[٣]
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم ... لا فوز إلا بعد خوض غمار
ما شاء سعد الدار أن تشقوا له ... فاشقوا له ما شاء سعد الدار
إن شق ترحال فهذي هجرة ... لا شُقة[٤] في مثلها فبدار
سيروا تتموا في الحياة فطالما ... كان التقاعس مؤذنًا ببوار
ما اللج وادَع أو تشاكس حارنًا ... إلا ذلول الراكب الكرار[٥]
ما البر أنجد أو أغار بجائب ... إلا سليبُ خطى ونهب قطار[٦]
ركب النجاة استطلعوا لبلادكم ... في الغرب كل مطالع الأنوار
هُزوا منابره بعالي صوتكم ... حتى يرن صداه في الأقطار
أنتم جنود السَّلم رسل جهاده ... أنتم أشعة مصر في الأمصار
أنتم أشعة حزمها شفافة ... عن حزنها والنور بث النار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم ... حق الحياة وما بها من عار
لا تسأمون تغربًا في مبتغى ... أسمى الهنات وأشرف الأوطار

---

(١) أي يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم.

(٢) الحلي: وجمعه حلي، ما يصنع من مصوغ المعدنيات، أو الحجارة الكريمة. والمقدار وهو القدر، يريد أن مجد الماضي، والمجد المأمول للمستقبل، يتقابلان كشقي تاج مصر.

(٣) يخاطب ركب المؤتمر وأعضاءه، ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضيم.

(٤) الشقة: السفر البعيد.

(٥) لج البحر: أمواجه؛ أي ليس البحر -إن سهل أو صعب- إلا كالركوبة الذلول للفارس الذي يروضها.

(٦) الجائب: المسافر.

الحكم شورى لا تفرد صالح ... في غير حكم الواحد القهار
لا تسترق عشيرة وديارها ... لعشيرة غلابة وديار
العدل إن يُقصَد فليس بكائن ... في نُكْر معرفة وغصب جوار
الرأي تكمَد شمسُه في موطن ... متناقض الإعلان والإسرار
الخير تفقد سُبْله في مجمع ... متعارض الإقبال والإدبار
ماذا عليكم أن تكون شعاركم ... هذي المطالب وهي خير شعار
لستم بسفاكي دم، لستم إلى ... غير الحقيقة طامحي الأنظار
لستم غلاة والأقل مرامكم ... بين الشعوب السُّبق الأحرار
لستم غلاة، خال ذلك منكم ... من لم يخلكم من ذوي الأخطار[1]
من لم يخل في مصر عبدًا شاكيًا ... في فترة التفكير والإضمار
أجزِعْ بسار آمن في معهد ... وثبت عليه فُجاءة التزآر[2]
إني ليعجبني كبير مرامكم ... وهو الحقيق بغاية الإكبار
وأقول للمزري بسن صغاركم ... ليس العظيم نفوسهم بصغار
أمهاجري أرض الكنانة إنكم ... وجميع من فيها من الأنصار[3]
امضوا دعاةً للهدى واستنصفوا ... بالحق للبلد العزيز الجار
كونوا الشهود له على أعدائه ... برجوع شمسِ نهاره المتواري

(١) أي لستم غلاة كما توهم ذلك من ظنَّ أنكم لستم من الكفايات والأقدار.
(٢) أجزع: أي ما أشد جزع، والفجاءة مصدر فجأة. والتزآر: زئير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية في ذلك العهد، كما يفاجأ الساري بزئير الأسد.
(٣) يسمى أعضاء المؤتمر: المهاجرين، وسكان مصر: الأنصار؛ تشبيهًا لهم بالمهاجرين والأنصار في صدر الإسلام.

افتتاح المؤتمر وأعماله

اجتمع المؤتمر برئاسة المترجم في منتصف الساعة الخامسة من (مساء يوم الخميس ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٠م) بمدينة بروكسل ببهو صالون مودرن SALONS MODERNES بشارع أوجست أورست AUGUST ORST، وأعلن الرئيس افتتاحه بين تصفيق الحاضرين وهتافهم.

خطبة الفقيد

ثم ألقى خطبة ضافية بالفرنسية، شرح فيها المسألة المصرية ومركز الاحتلال بإزاء مصر وأوربا، وأبان أن القضية المصرية لا تعني مصر وحدها؛ بل هي قضية عالمية، تتصل بأمم الأرض جميعًا. قال في مقدمة الخطبة:

«أيتها السيدات أيها السادة: اسمحوا لي أن أشكركم باسم المؤتمر الوطني المصري على تفضلكم بإجابة دعوتنا، فذلك ما كنا ننتظره من أحرار الأمم الراقية الذين قصدناهم لنشرح لهم حقيقة الأحوال في وطننا من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وإن حسن مقابلتكم لنا لدليل على أن قضية الحق والعدل، لا تزال تجد وستجد دائمًا أصدقاء وأنصارًا من أبناء الأمم التي تتمتع بحقوق الإنسان الطبيعية.

أيها السادة: إن اجتماع مندوبين من أمم متعددة مختلفة في هذه الندوة أصدق برهان على أن الحركة الوطنية المصرية قد نالت ثقة الأمم التي تمثلونها الآن أشرف تمثيل، فأشكركم وأقدم تحياتي للأمم التي أنجبتكم، وأشكر على الأخص تلك الأمة التي قابلتنا بصدر رحيب في بلادها، وهي الأمة البلجيكية؛ تلك الأمة الصغيرة في عدد أبنائها، الكبيرة في أخلاقها وشمائلها. إننا لن ننسى للأمة البلجيكية تلك المقابلة الأخوية التي قابلتنا بها، وبخاصة بعد أن رأت الحكومة الفرنسية من مصلحتها منع انعقاد مؤتمرنا في بلادها؛ مخالفة ما عرف عن تلك البلاد من إكرام ضيوفها. على أنني

أصرح هنا بأن الأمة الفرنسية المجيدة لا تحتمل وزر حكومتها، ولا تسأل عن عمل انتقدته صحف الأحزاب الحرة جميعها، فالأمة الفرنسية المجيدة ستظل كما كانت حائزة لمحبتنا وعطفنا، وعلى ذلك فأنا أرسل إليها تحية الإخاء والوداد.

إنَّ حضوركم مجتمعاتنا ومؤتمراتنا يدل من ناحية أخرى على أن الرأي العام الأوربي، لا يطلب إلا أن يستنير في أمر المسألة المصرية، ويصغي بكل إنصات إلى أدلتنا وحججنا، بعد أن سمع أدلة خصومنا، فإن الوزراء الإنجليز لا يحجمون وهم على منصات البرلمان أن يشوهوا وجه الحقائق، ويلبسوا أمام الملأ لبوس الصادقين في كلامهم عن المسائل المصرية، ولعلهم معتقدون أن كلماتهم تؤخذ قضايا مسلمة، لا تقبل الجدل ولا الشك، ولذلك لا يخشون أن يتناقضوا في أقوالهم وتصريحاتهم، ولا يبالون أن يتناسوا اليوم ما جاهروا به بالأمس، يرمي أولئك الوزراء الأمم بالجهل والتأخر والتعصب وكراهة المدنية الغربية، كأنهم لا يعلمون أنه قد يظهر في تلك الأمم رجال يأخذون على عاتقهم إثبات فساد هذه التهمة إن لم أقل إثبات سوء القصد في اتهامنا بها، لكي يسوغوا احتلالهم الممقوت لبلادنا، ويطيلوا أمد وجودهم في ربوعها، هؤلاء القوم لا يكتفون بالاعتماد على نفوذهم الشخصي، ونفوذ صحافة بلادهم التي تساعدهم بمحاربتنا بالوشايات، واتهامنا بالتهم الملفقة؛ بل يلجأون أيضًا إلى نفر -أمثال روزفلت- لكي يسبونا في بلادنا، ثم يسمحون لهم بترديد هذا السباب القبيح في «جلد هول» بقصد تثبيط همتنا والحيلولة بيننا وبين عطف الذين يضعون الحق والعدالة فوق السياسة ومقتضياتها.

لقد انخدع السير إدوار جراي[1] عندما تحمل تبعة تلك العبارات التي أجهد المستر روزفلت نفسه في وضعها وتنسيقها، وأقام البرهان للعالم أجمع على أن الرجل ذا العصا الغليظة (المستر روزفلت) لم يكن إلا مبلغًا رسالته معبرًا عن أفكاره، أو بعبارة أخرى لم يكن إلا مبلغًا تهديده إلى الأمة المصرية، ولكن أقوال المستر روزفلت التي

(١) وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

أراد أن يجامل بها إنجلترا، وتهديدات السير جراي لم يكن لها علينا شيء من التأثير الذي كانوا ينتظرونه منها، فإن الحركة الوطنية المصرية لم يصبها منها أقل ضرر؛ بل بالعكس أنعشتها ونفخت فيها روحًا جديدة، وهذا المؤتمر دليل ينطق بهذه الحقيقة، فنحن نسير أيها السادة نحو الحرية، وليس في العالم شيء يحول بيننا وبينها».

برنامج الحركة الوطنية

ثم تكلم عن برنامج الحركة الوطنية فقال:

«أمَّا برنامجنا فهو يجتمع في كلمتين: الجلاء والدستور؛ فإن جلاء كل احتلال أجنبي وتحرير وادي النيل العزيز حق طبيعي لنا، لا يجادلنا فيه مجادل، وهو ضروري لحفظ كرامتنا الوطنية، وقوام حياتنا القومية بصفتنا أمة حرة. إن مصر تطالب بالمركز الخليق بها بين الأمم الحرة، وتسعى للحصول على نصيبها من نور الحرية وشمسها المضيئة. نعم إن الأمة التي سبقت الأمم جميعها إلى الحرية والمدنية يجب أن تأخذ بينهنَّ مكانًا لا تنازعها فيه دولة من الدول، فإن أحفاد أولئك الذين بنوا الأهرام وشيدوا مقابر الملوك، بما أعجب به العالم طرًّا، يمكنهم أن يصلوا بأعمالهم وثباتهم وحبهم للعلم والحرية، إلى ما وصل إليه أجدادهم وأن يحصلوا على المركز الذي يأباه عليهم الاستعماريون الإنجليز، وتأباه كذلك طائفة من المرابين المختلفي الجنسيات؛ خدمة لمصالحهم المالية التي يريدون الحصول عليها بطرق لا يبالون بمقدار قربها أو بعدها عن الفضيلة. نحن نعرف كيف نسعى لنكسب عطف الرأي العام في العالم، فقد عطف قبل ذلك على أمم أقل مدنية وعلمًا من الأمة المصرية، وساعدها على بلوغ غايتها».

حيدة مصر ومسألة الجلاء

«نحن أمة تتألف من ثلاثة عشر مليونًا من النفوس، متحدين في اللغة والعادات، متحدين في الدين؛ إلا أقلية كانت ولا تزال محترمة الحقوق دائمًا، فلا أفهم إذن لماذا

تبقى مصر تحت سلطان إنجلترا، كما يصرح به السير جراي؟ ألأنها واقعة عن طريق الهند، وأن قناة السويس تخترق الأرض التي كانت تصل إفريقيا بأسيا؟ أنتم تعلمون جيدًا أن هناك معاهدة دولية أُبرمت سنة (١٨٨٨م)[١] لضمان حيدة القناة. وقد يحتج الإنجليز على ذلك بقولهم: إن الحيدة نظرية أكثر مما هي حقيقة عملية، وأنه في حالة الحرب لا بد من سقوط القناة في يد أقوى الدولتين المتحاربتين، وأن صالح المملكة البريطانية يقضي بأن تكون هناك الجيوش الإنجليزية لاحتلال القناة وحمايتها أثناء القتال، ولكن الدول الأخرى يمكنها أن تحتج عليها وتدحض هذه الحجة وتقول لها: إنَّا نحن أيضًا لنا مصالح في الشرق، ويهمنا كما يهمك أن تكون القناة على الحياد أثناء القتال، فلا يمكننا -والحالة هذه- نتركك في مصر لتكون القناة تحت تصرفك ورحمتك.

فيستنتج من ذلك أن الصالح الدولي للعالم أجمع يقضي بأن لا تكون مصر محتلة بأية دولة أجنبية، وأن تترك لنفسها لتكون أمة على الحياد تحترم كل الدول حيادها، وأمام أعيننا مثال قائم: بلجيكا التي ساعدتها فرنسا على التخلص من هولاندا، والتي تساعدها إنجلترا وتحميها من ألمانيا، فموقف مصر الدولي في أهميته معادل لأهمية بلجيكا، والدولة التي تحتلها تكون لها ميزة كبرى على بقية الدول، ترون من ذلك أيها السادة أن مصالح الدول جميعها تبقى مهددة ما دامت إنجلترا محتلة لمصر، كما أن احتلالها يهدد مصالح مصر نفسها، التي لها حق طبيعي في الاستقلال، لا يزول ولا يسقط مهما طال عليه الأمد، ولكن هذه المسألة الأخيرة لا تمسكم إلا من جهة تأثر

(١) هي معاهدة الأستانة التي أمضيت في (٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨م) وقضت بأن تبقى قناة السويس دائمًا حرة ومفتوحة للملاحة في حالتي السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية التابعة لجميع الدول، وتعهدت فيها الدول بألا تعرقل أو تمنع حرية المرور في القناة في حالتي السلم والحرب، وأن تمتنع عن حصرها أو اتخاذها ميدانًا للحركات الحربية، أو إنزال جنود أو مهمات حربية على ضفافها. (راجع نص هذه المعاهدة في كتابنا: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ص٢٥٥، طبعة سابقة).

عواطفكم منها، ولذلك أطلت القول في المسألة المادية التي يهتم لها ساسة الدول العظمى.

على أنَّ القضية التي ندافع عنها، والمطالب التي نجاهد في سبيلها، قد قدرها مؤتمر السلام الدولي الأخير حقَّ قدرها، حينما انعقد للمرة الثامنة عشرة في مدينة استوكهلم، فإن هذا المؤتمر لم يتردد لحظة واحدة في قبول اقتراح إظهار عطفه على أمتنا، وإحالة مسألتنا السياسية على لجنة المؤتمر ببرن، حتى تدرسها وتدرجها ضمن أعمال مؤتمر السلام القادم الذي سينعقد بمدينة روما (في أكتوبر سنة ١٩١١م)، فمسألتنا قد عرضت على محكمة الرأي العام في العالم بأسره، وإن لنا كبير الأمل في أن يصل إلى حلها حلًّا يوافق مصالحنا؛ أي حلًّا يوافق مبادئ الحق والعدل. وإني أنتهز هذه الفرصة لأحيي أعضاء مؤتمر استوكهلم تحية أخٍ يعرف لهم ما يبذلونه من عون في سبيل السلام العام».

مسألة الدستور

وتكلم عن مسألة الدستور فقال:

«اسمحوا لي أيها السادة أن أخاطبكم عن المسألة التي نضعها في الصف الأول من اهتمامنا بعد مسألة الجلاء، والتي بدونها لا يكون ثمة إصلاح حقيقي في البلاد، ويكون كل ما تناله الأمة دونها من قبيل ذر الرماد في العيون. أريد أن أخاطبكم عن مطالبتنا بالدستور الذي يضع في يدنا سلطة التشريع، ويجعل لنا الرقابة الفعالة على شئوننا المالية التي تدار الآن بغير مراعاة لمصالح البلاد.

إنَّ حق الأمم في أن تحكم نفسها بنفسها حق طبيعي يستمد وجوده من الفطرة الإنسانية، وإن نواب الأمة هم وحدهم القادرون على تقدير حاجات مواطنيهم ومطالبهم، ووضع القوانين الصالحة لهم، الموافقة لعوائدهم وأخلاقهم؛ أما في بلادنا حيث لا دستور، ولا رقابة على الحكام، فالمستشارون الإنجليز هم الوزراء الحقيقيون

الذين يديرون شئون البلاد بمحض إرادتهم، فيجعلون البلاد ميدانًا لتجاربهم، وينقضون اليوم ما يبرمونه بالأمس، ويأنفون من العمل بملاحظات مجلس شورى القوانين، ولئن عارضهم وزراؤنا في بعض المواطن، فإنهم ينتهون معهم دائمًا بالتسليم، وذلك إزاء تهديد الإنجليز لهم بأنهم إما أن يذعنوا، أو يستقيلوا. إني لا يمكنني أن أدخل في تفصيلات إدارة حكومتنا وماليتها، وسيشرحها لكم إخواني أعضاء المؤتمر. وحسبي أن أقول لكم: إن ميزانيتنا تقدر بستة عشر مليون جنيه، ومع أن جيشنا يزيد عن (١٢,٠٠٠ جندي)، ولا بحرية لنا، فإن الحكومة لا تجد الاعتمادات الكافية لتعميم التعليم الابتدائي، وجعله إلزاميًّا، ولا لإنشاء مدارس ثانوية تناسب زيادة عدد السكان، فالبلاد قد سارت في طريق التقهقر منذ ابتليت بالاحتلال؛ خلافًا لما يزعمه الإنجليز وأذنابهم، من أن الاحتلال كان عهد ارتقاء وسعادة لها، فالدواء الوحيد لهذه الحالة، إنما هو الدستور الذي يسمح لنا بأن ندير أمورنا بما ينطبق ومصالحنا، أما الآن فلا اهتمام من الحكومة إلا بمصالح إنجلترا الاستعمارية؛ لقد صرح السير إدوارد جراي مرارًا وهو على منبر الخطابة في مجلس العموم الإنجليزي أننا لم ننضج بعد لنحكم أنفسنا بأنفسنا، وهي نفس الوسيلة التي يستعملها الأوصياء المغتالون لكي يتمكنوا من اغتيال أموال القصر الذين تحت وصايتهم، وقد هددنا السير جراي فوق ذلك بأنه يعارض في منحنا حكومة ذاتية ما دام في مصر حزب يطالب بها، فهو يحصرنا بين أمرين متناقضين تناقضًا منطقيًّا؛ لأننا إذا سكتنا قالوا: إننا راضون بالحالة الحاضرة، سعداء بالحكم المطلق، وإذا طالبنا بحقوقنا، أجابوا بقولهم: اسكتوا أولًا وأنتم تنالون كل ما تطلبون! فما هي الصفات اللازمة للأمة لكي تحكم نفسها؟ ليست هناك شهادات تدل على وجود هذه الصفات في الأمم، ولم يفكر أحد بعد في إنشاء مدارس تتعلم فيها الأمم كيف تحكم نفسها بنفسها؛ أليس نصيبنا من المدنية والعلم أوفر من كثير من الأمم التي تتمتع بهذا الحق الطبيعي؟ يقولون: إنه كيفما تكون الأمة تكون حكومتها، وهي نظرية صحيحة وعادلة معًا؛ ومعناها أنه لما كانت الحكومة مظهرًا من مظاهر الأمة، فيجب أن تكون

على صورتها، فنظام الحكومة المطلقة لا يتفق بناء على ذلك مع مطالبنا الوطنية؛ لأنه يضع نفسه عادة فوق الأمة التي يحكمها. يزعمون أننا لا نفهم النظام النيابي، وعلى ذلك فنحن غير أهل له، فأي دليل يريدون على فساد هذا الزعم أكبر من انتقال هذا العدد الكبير من الوطنيين المصريين من القاهرة إلى باريس، ثم إلى بروكسل، لكي يشرحوا للعالم أجمع مبلغ انحطاط نظام حكومتهم الذي تأبى إنجلترا إلا أن تبقي عليه بمعارضتها في إعلان الدستور المصري الذي أعلن في سنة (١٨٨٢م). إننا لا نكتفي بقانون مجالس المديريات، ولا نقنع من النظامات النيابية إلا بالدستور الكامل. وإني أختم خطبتي بكلمة قالها جناب الكونت ابوني -وزير المعارف العمومية في بلاد المجر، ونشرها في كراسة وزعها على أعضاء المؤتمر الدولي للمجالس النيابية الذي انعقد في هذه المدينة، قال:

«نحن نعلن للملأ بأننا لو لم ننل دستورنا كاملًا لآثرت الأمة بأسرها أن تبقى صابرة على آلامها، غير مفرطة في أي مطلب من مطالبها الشرعية؛ ذلك بأننا اتبعنا تلك الحكمة البالغة التي قالها المسيو «رينوديك»، وهي: إن ما تسلبنا إياه الصرامة والشدة، ترده لنا المثابرة وظروف الزمان؛ ولكن ما نتنازل عنه بأنفسنا من الحقوق، يضيع ونفقده إلى الأبد».

أيها السادة:

إننا نعرف كيف نصبر على المكاره، ولكننا لا نعرف التسليم لأعدائنا ولا التنازل عن مطالبنا».

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق من جميع الحاضرين.

ثم تليت البرقيات والرسائل الواردة بتهنئة المؤتمر وتأييده، ومعظمها من مختلف نواحي مصر وهيئاتها وجماعاتها، وبعضها من أنصار مصر في الشرق والغرب.

خطباء المؤتمر

ووقف الدكتور «محمود لبيب محرم» أحد أركان الحركة الوطنية، ومدير مستشفى مونيخ بألمانيا، وخطب باللغة الألمانية خطبة نفيسة حيا فيها الحاضرين من النواب الألمان باسم المؤتمر، وأعاد تلاوة كلمته باللغة العربية.

نصائح المستر بلنت للمصريين

ثم تليت خطبة المستر «ويلفرد بلنت» الذي اعتذر عن تخلفه عن الحضور لمرضه وشيخوخته، وقد ضمنها تأييده للمصريين في جهادهم، وختمها بنصائح ثمينة، تشف عن صدقه وإخلاصه، قال: «احذروا منا، فإننا لا نريد لكم شيئًا من الخير، لن تنالوا منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية، وما دمنا في مصر فالغرض الذي نسعى إليه من أجل البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية في منشستر، وأن نستخدم أموالكم لتنمية مملكتنا الإفريقية في السودان، وأن نستمر بأقل حياء من الماضي في تنمية مشروعاتنا المالية الإنجليزية الصهيونية في بلادكم، وأن نقيد أيديكم وأرجلكم لنجعلكم هدفًا لأطماعنا الاقتصادية.

لم يبق لكم عذر إذا أنتم انخدعتم في نياتنا، بعد أن وضح الأمر فيها وضوحًا تامًّا، فاخذروا أن تنساقوا إلى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها».

ثم أخذ ينصح للوطنيين المصريين فقال: «ثابروا على أن تعارضونا معارضة جهرية جريئة كل يوم، اطلبوا بلسانٍ واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون منه، وأن نعود نحن إلى حظيرة القانون، وأن نسحب جنودنا من بلادكم، وأن نكف عن التدخل في شئونكم. اطلبوا ذلك، فإنكم بطلبه لا تخسرون شيئًا؛ إذ نحن غرباء في بلادكم، ومن حقكم أن تطالبونا بترككم، ذكرونا دائمًا وبكل وسائل الإعلان بأن لا حق لإنجلترا في أن تتصرف عندكم تصرف السيد، وأنكم لا تريدوننا حامين لكم ولا

مستشارين ولا منظمين لإدارتكم، ولا تتركوا لنا عذرًا نعتذر به لندعي لأنفسنا شيئًا من ذلك.

أظهروا معادتكم لنا بصراحة؛ ولكن لا تظهروها بثورات سابقة للأوان لا تفيدكم شيئًا، بل بتلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي تُمنى بالأجنبي لتثبت له استياءها، وهي مقاطعته في معاملاته التجارية والرسمية وفي علاقات الأفراد بعضهم ببعض.

لا، لم يبق لكم إلا وسيلة واحدة لإقناعنا، وهي أن تثبتوا لنا أن احتلالنا بلادكم مصدر تعب لنا ينمو دائمًا ومصدر خطر عظيم علينا إذا شبت الحرب، أقنعونا بذلك؛ إذ في اليوم الذي يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم لا توازي المتاعب والأخطار التي يسببها لنا، نرى أنكم محقون ونترك بلادكم، وثقوا بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة».

وتلي بعد ذلك كتابان نفيسان من المستر «ديللون» والمستر «كتل» العضوين بالحزب الأيرلندي في البرلمان الإنجليزي، بتأييد القضية المصرية، وكان المستر «كتل» من خطباء مؤتمر جنيف (في سبتمبر سنة ١٩٠٩م)، كما تقدم بيانه (ص ١٣٠).

وألقى فؤاد أفندي حسيب (بك) خطبة موضوعها: (هل مصر تستحق الدستور؟)، أقام فيها بلغة فرنسية بليغة أقوى البراهين على استحقاق مصر للنظام الدستوري. وبذلك انتهت الجلسة الأولى للمؤتمر.

واستمر المؤتمر مجتمعًا عدة جلسات لسماع الخطب والتقارير التي أعدها أعضاء المؤتمر.

ففي جلسة ٢٣ سبتمبر ألقى حامد أفندي العلايلي (بك) خطبة عن (مستقبل مصر). وبعد أن انتهى منها طلب المستر كير هاردي KEIR HARDIE –زعيم حزب العمال بإنجلترا، والعضو بالبرلمان البريطاني– من أعضاء المؤتمر المناقشةَ في

موضوعها، فوقف الدكتور محجوب ثابت وتكلم عن ازدياد عدد الوفيات بمصر، لمناسبة ما ذكره الخطيب في خطبته من انتشار الوفيات في أيرلندا والهند.

وألقى الأستاذ مصطفى الشوربجي المحامي خطبته عن (الامتيازات الأجنبية في مصر). وألقى الأستاذ أحمد وفيق خطبة مستفيضة عن تاريخ التعليم في مصر في عهد الاحتلال وما قبله.

وتكلم المستر كير هاردي KEIR HARDIE معقبًا على هذه الخطبة؛ فلفت أنظار الأعضاء إلى مسألة تعليم المرأة. وقد اشترك في المناقشة أحمد بك لطفي، والدكتور محمد سامي كمال، والأستاذ طه العبد، وأيدوا وجوب العناية بتعليم المرأة وتثقيفها.

وألقت مدام «كاما» الزعيمة الهندية خطابًا قالت فيه: «إني لن أضارع الخطباء الذين تقدموني؛ ولكن كلامي صادر من قلب امرأة، ومقول بأسلوب نسوي: أين أيها المصريون ذلك الجزء المكون لنصف سكانكم؟ أين أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم؟ إني أناشدكم الله أن تحسنوا معاملة المرأة، ولا تسيئوها، ولا تسيئوا لتلك التي تربي الرجال وتكونهم وتهذبهم. لا أفهم لماذا تقبر المرأة، ولا تشترك مع الرجل في تحرير الوطن؟! إنَّ الحرية تؤخذ بجميع الجيش، فلا يجوز إهمال جزء منه عند الجهاد، وإني أعتبر أبناء الوطن الواحد، كجيش واحد تتساوى فيه المرأة والرجل، فإذا أهملت الأولى وتخلت عنه؛ فإنه يفقد جزءًا كبيرًا من قوته».

ثم تكلمت بعد ذلك على التزوج بالأجنبيات، ونصحت للمصريين بعدم التزوج بهن، وقالت: «إذا كنت أدافع عن مستقبل المرأة المصرية والهندية فذلك لأجل أن تكون النساء أهلًا لتربية رجال وطنيين».

ثم استطردت إلى التكلم على تعليم الأمم المحكومة بالأجنبي، فقالت: «إن الهند ظلت ثماني وعشرين سنة تعقد المؤتمرات للمطالبة بالتعليم فلم تفلح؛ وذلك لأن الأمة الأجنبية لا تعلم أمة غيرها، فإذا كانت الأمم المغصوبة تريد العلم، فلتعمل هي

على تحرير نفسها أولًا، ولتلقن الأمهات أطفالهن في الصغر محبة الوطن والحرية والاستقلال».

وختمت خطبتها بقولها: «إذا كانت إنجلترا تعتقد أن لها مدنية عظيمة تسوغ لها السيطرة على غيرها من الأمم، فلتعلم أن مصر والهند لهما مدنية أعظم شأنًا وأكبر أثرًا».

وخطب بعدها المستر هارديال أحد الشبان الهنود عن وجوب العناية بالتربية الوطنية.

وخطب بعده الدكتور محجوب ثابت عن (التعليم الطبي في مصر)، وبعد ذلك تليت خطبة السيدة (انشراح شوقي) كريمة المرحوم مصطفى بك شوقي بالفرنسية، عبرت فيها أصدق تعبير عن عواطف السيدات والفتيات المصريات نحو وطنهن، واهتمامهن بشئون بلادهم وقيامهن بتربية الجيل الجديد، تربية وطنية صحيحة، فقوبلت خطبتها بالتصفيق والاستحسان.

وبجلسة ٢٤ سبتمبر صباحًا تلي موضوع (التشريع والقضاء في مصر) للأستاذ عبد السلام ذهني، وتكلم الأستاذ طه العبد عن (الحركة الاجتماعية في مصر) شرح فيها حالة الفلاح التعسة، وخطب بعده الأستاذ محمد لطفي جمعة عن (حيدة مصر)، وتلي بحث عن (الصحة في مصر) للدكتور منصور رفعت، وبحث آخر في الموضوع نفسه للدكتور محجوب ثابت.

ثم تلي موضوعي الذي قدمته للمؤتمر وهو (مركز الصحافة في مصر والأدوار التي تعاقبت عليها في عهد الاحتلال البريطاني)، وقد ألقاه عني فؤاد بك حسيب؛ إذ كنت في أثناء اجتماع المؤتمر أتولى مؤقتًا رئاسة تحرير (العَلم) وذلك في غيبة شقيقي أمين بك الذي حضر المؤتمر نائبًا عن العلم، وكان الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس التحرير يقضي وقتئذ مدة السجن المحكومة بها عليه في قضية (وطنيتي).

ثم تلي موضوع (الصناعة المصرية) لعلي بك ثروت ناظر مدرسة الصنائع بالمنصورة سابقًا.

وبجلسة ٢٤ سبتمبر مساء خطب المسيو جوستاف روانيه GUSTAVE ROUANET نائب باريس الذي أسندت إليه رئاسة الجلسة، فقال:

«إني آسف كثيرًا لما فعلته الحكومة الفرنسية باعتباري اشتراكيًّا أولًا، وفرنسيًّا ثانيًا؛ باعتباري اشتراكيًّا لأن حزبنا قد ساعد كثيرًا على إبرام الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا؛ ولكني أصرح بأعلى صوتي أننا لم نرد مطلقًا إلحاق الضرر بأحد ولا سيما مصر، ولكن أردنا اتخاذ هذا الاتفاق وسيلة لتنفيذ بعض المقاصد السياسية، وإن ما كان بعد ذلك لهو خيانة من جانب إنجلترا ومن جانب الحكومة الفرنسية، فقد كان غرضنا الوحيد توطيد السلام؛ ولكن لا سلام ما دام في الوجود استعباد، ذلك بأن كلمتي سلام واستعباد لا تتفقان. أما باعتباري فرنسيًّا فلأن القرار الذي أصدرته الحكومة الفرنسية مناف للمبادئ والحقوق التي تعلنها فرنسا في العالم، ولذلك أرى من الواجب عليَّ أن أعلن للملأ أن هذا العمل مناف لما يذهب إليه الرأي العام الفرنسي، وإني متحقق من أنه لو كان سواد الذين اشتركوا في أمر منع انعقاد المؤتمر المصري في باريس يعلمون علمًا تامًّا بحقيقة المصالح الفرنسية في مصر، وحقيقة مطالبكم لما أصدروا قرارهم هذا أبدًا. وهذا ويجب عليكم أن تعلموا بأن مبادئكم غير معروفة في أوربا معرفة تامة، والصحافة كثيرًا ما تشوه مطالبكم ورغائبكم، ولقد أتيت هنا لأحضر المؤتمر وأعلم ما لم يكن لي به علم؛ فوقفت على كثير من أعمالكم وعلى حالتكم المادية والأدبية، واستفدت من ذلك فائدة كبيرة. وإني أعتقد أن التقارير التي تليت في المؤتمر تبعث إلى قلوب من سمعها نور الحقيقة الساطعة، فلا يفوتنكم أن تنشروا هذه الأعمال في أوربا حتى يعلم الملأ حقيقة أمركم وثباتكم على مطالبكم. أثبتوا للملأ أنكم تطالبون بحق تؤيده القوانين الطبيعية والقوانين الدولية؛ لأن الأولى تقضي بأن تتمتع كل الأمم بالحرية، ولأن المعاهدات الدولية تضمن لكم

استقلالكم. هذا ما أقوله لكم باعتباري وطنيًّا فرنسيًّا. وإني أضيف على ذلك باعتباري اشتراكيًّا بأني أتمنى تحرير الأمة المصرية تحريرًا قريبًا ونهائيًّا».

ثم تُلي تقرير عن (الجيش المصري) للفيف من الضباط أظهروا فيه عيوب الجيش المصري، بسبب السياسة الإنجليزية، وتلته مناقشة في شأن هذا الجيش انتهت بأنه لا يمكن إصلاحه ما دام الاحتلال موجودًا في مصر.

وتلي تقرير (عن الزراعة في مصر ماضيها وحاضرها ومستقبلها) لعالم زراعي خبير، تكلم فيه عن حالة الزراعة وسوء إدارة الاحتلال للشئون الزراعية، وتحدث عن الوسائل التي يمكن اتخاذها لملافاة نقص محصول القطن، ودعا إلى إنشاء وزارة للزراعة.

ثم تلي موضوع (السياسة المصرية والسياسة الإنجليزية)، للأستاذ محمد حافظ رمضان بك (باشا).

وألقى علي فهمي كامل خطبة عن الحالة المالية في مصر، ونتائج الاحتلال الإنجليزي.

ثم وقف المستر كير هاردي زعيم حزب العمال في إنجلترا، وألقى خطبة حماسية أيد فيها طلب الجلاء، ولكنه خالف بعض مبادئ الحزب الوطني؛ إذ لم يوافقه على التقيد بالوسائل السلمية، ودعا المصريين إلى جعل الحركة الوطنية حركة ثورية، لاعتقاده أن إنجلترا لن تجيب مطالب مصر بغير القوة، ثم قال بعد ذلك ما خلاصته:

«إني أنتقد فرنسا مر الانتقاد، على منعها مؤتمركم من الاجتماع في باريس، ولقد كان هذا المنع أكبر باعث لي على الحضور إليكم، والاشتراك معكم اشتراكًا فعليًّا، ويظهر أن أوربا قد أصبحت الآن لا تعنى إلا بالمسائل المادية والمصالح الذاتية، ولم تعد نصيرة الحرية كما كانت من قبل. إنهم يضطهدونكم، فلا تيأسوا؛ لأن الحرية عزيزة، وثمنها غال جدًّا، ولا بد أن يكلل عملكم بالنجاح، فهذا «مازيني» بطل

إيطاليا العظيم، طورد واتهم في أكثر أيام حياته؛ ولكنه فاز في آخر أمره، وهو الآن مبجل معظم ينحني ملك إيطاليا أمام تمثاله خاشعًا خاضعًا، وإني لأرجو أن يأتي اليوم الذي أرى فيه لمصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك تماثيل تنحني الرءوس أمامها؛ احترامًا وتقديرًا (تصفيق). إن إنجلترا لا تملك حقًّا في أن تبقى بمصر، وإن جميع الإنجليز الذين يحافظون على شرفهم، ليرون رأيي هذا، ويذهبون إلى ما أذهب إليه في هذه المسألة، ولقد وعدكم كل من جلادستون وسالسبوري بوعود، فيجب أن تصان هذه الوعود وتحفظ، يجب أن ينجلي الاحتلال عن بلادكم، ويرد الدستور إليكم. إن أعداءكم السير جراي، والمستر بلفور، والمستر روزفلت، لا يتكلمون بلسان العدالة، وإنما هم ينطقون بلسان المال فقط، فلا تتقهقروا، واعملوا بجد ونشاط، فساعة النصر آتية لا ريب فيها؛ لأن الحق الذي تطالبون به، هو طلب عادل. إن إنجلترا تعمل على تفريقكم وتقسيمكم بفصل الأقباط عنكم، فلا تسيروا وراءها، ولا تتبعوا خطواتها؛ لأنها لا تبغي إلا تحقيق ما هو جار بالهند. ولا ريب في أن الوطنية ليست خاصة بفريق دون فريق؛ بل يشترك فيها الجميع، فيجب أن تكون مصر لجميع المصريين».

وقد قوبلت خطبته بالتصفيق والإعجاب من جميع الحاضرين.

وتكلم بعده المسيو «هوبتمان» HAUPTMANN النائب الألماني، فأيد الحركة الوطنية المصرية.

وألقى عثمان بك غالب كلمة، فند فيها مزاعم الاحتلال، من أن الفلاحين قد سعدوا بحكمه، وأعقبته مدام دراي هرست DRYHURST الأيرلندية، مكاتبة جريدة الديلي نيوز في المؤتمر، فأعربت عن مشاركة الأيرلنديين للمصريين عواطفهم، وذكرتهم بما أصاب الأيرلنديين من المتاعب في حركتهم الوطنية.

ثم تليت خطبة (السودان المصري) للأستاذ محمد زكي علي (بك) المحامي، وقد ضمنها تاريخ المسألة السودانية من أول نشأتها، وبحثها من الوجهة القانونية الدولية بحثًا دقيقًا أثبت في ختامه بطلان (اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩م) وعدم صحتها.

وألقى المسيو روزاليشف ROSALICHEF –وهو بولوني– خطبة مؤثرة قال فيها: «إني ابن تلك الأمة التي توالت عليها وخزات الحوادث، فلم تقض على حياتها، ففي بلادنا الآن حركة وطنية عظيمة، برغم الجهود التي تبذل لمحاربتها، فبولونيا لم تمت ولن تموت».

قرارات المؤتمر

وفي ختام الجلسة وقف الأستاذ أحمد بك لطفي، فألقى خطبة باللغة الفرنسية، انتقد فيها أعمال الوزارات في مصر؛ ولخص أعمال المؤتمر وأغراضه، ثم أصدر المؤتمر القرارات الآتية:

أولًا: عدم شرعية الاحتلال، وضرورة الجلاء العاجل عن مصر.

ثانيًا: وجوب رد الدستور إلى مصر.

ثالثًا: بطلان اتفاقية السودان.

رابعًا: وجوب إلغاء قانون المطبوعات، وقانون الاتفاقات الجنائية، وقانون النفي الإداري.

وليمة المؤتمر

وأقام المؤتمر بعد انتهاء جلساته وليمة في (مساء السبت ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٠م) بفندق «بالاس أوتيل»، وهو أكبر فنادق بروكسل؛ لتوديع ضيوفه، تصدرها الفقيد، وعن يمينه المستر كير هاردي KEIR HAREDIE. M زعيم حزب العمال في إنجلترا؛ فالبارون فنلند VON WINDLAND ياور ملك بافاريا، فمدام دراي

هورست DRYHURST مكاتبة جريدة «الديلي نيوز»، وإلى يساره المسيو هوبتمان HAUPTMANN العضو بمجلس نواب بروسيا؛ فالدكتور هوفر HOFER عضو مجلس الريشستاج الألماني، فالدكتور وايجلت WEIGELT الأستاذ في الحقوق، ثم سائر المدعوين؛ وقد حضر الوليمة أكثر أعضاء المؤتمر وضيوفه.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام وقف الفقيد، فحيا ذكرى مصطفى كامل، وشكر ملك البلجيك وملكتها، والأمة البلجيكية، وحزب الشعب، وبعد ذلك شرب المستر كير هاردي نخب الرئيس، ثم هتف الأعضاء للمستر كير هاردي، والهند، وإيرلندا، ونواب ألمانيا، وأحرار فرنسا.

وبعد ذلك قامت مدام كاما وشكرت المصريين على احتفائهم بالهنود، وعطفهم عليهم.

خطبة المستر كير هاردي

ووقف المستر «كير هاردي» فخطب بلسانه الفصيح خطبة كانت آية في الحكمة والبلاغة، وجه فيها إلى المصريين أثمن النصائح وأغلاها، قال:

«لقد نجح المؤتمر نجاحًا باهرًا، وإني أعد انعقاده في يوم ذكرى عيد الاستقلال البلجيكي فألًا حسنًا على فوزه، وإني أنتهز هذه الفرصة لأحثكم على التمسك بلغتكم؛ فإن تعلمكم باللغة الإنجليزية خطأ محض، فيجب أن تكون اللغة العربية أساس كل شيء عندكم؛ لأن لغة الأمة هي جزء من حياتها، فلا تهملوها، وإني أتمنى أن لا يدوم الاحتلال طويلًا، حتى تصبح اللغة العربية الوسيلة الوحيدة لكم في كل شيء، ولقد سرني كثيرًا مقابلتي لبعض المصريين بلباسهم الوطني في هذا المؤتمر. وإني أعتقد أن الفلاحين يرضون بمثل عبد الحميد بك عمار (وكان معممًا) حاكمًا عليهم؛ لا إنجليزيًّا أجنبيًّا عنهم، وإني آسف شديد الأسف لرؤيتكم مرتدين ملابس أجنبية، وأرجو أن لا ترتدوا إلا الملابس الوطنية، تمسكوا بعوائدكم وآدابكم ولغتكم، وابعثوا

إلينا بالمعلومات الحقيقية عن حالة بلادكم. إني أرى أن تنشئوا في مصر مكتبًا للاستعلامات لإحاطتنا بكل شيء يحدث عندكم. وفي الختام أهنئكم بالنجاح العظيم الذي صادفه المؤتمر، وآمل أن الحركة الوطنية تسير في سبيلها القويم، بالتقدم السريع الذي نراه الآن».

وتكلم بعده المسيو موازان MOISANT الأستاذ الفرنسي الأديب، فحيا الحركة الوطنية المصرية، وشكر الفقيد وزملاءه على ما بذلوه من الجهود.

صدى المؤتمر

شهد الذين حضروا المؤتمر، وسمعوا الخطب التي ألقيت فيه والمناقشات التي دارت تعقيبًا عليها، أنه تناول جميع المواضيع التي تتألف منها المسألة المصرية من نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة، وقد جمعت هذه المواضيع في كتاب ضخم باللغة الفرنسية، أخرجته لجنة المؤتمر باسم (أعمال المؤتمر الوطني المصري ببروكسل).

OEUVRES DU CONGRES NATIONAL EGYPTION TENU A BRUXLLES LE ٢٢, ٢٣, ٢٤ SEPTEMBRE ١٩١٠

وهو من أهم المراجع في تاريخ المسألة المصرية.

ولقد كان لهذا المؤتمر صداه في أوربا وفي مصر؛ ففي أوربا كان له أثر كبير في رفع شأن مصر والمسألة المصرية في العالم، وتعريف الرأي العام في مختلف البلدان أن الأمة المصرية أمة تجاهد في سبيل استقلالها، وأنها تأبى الضيم، ولا ترضى بالاحتلال الأجنبي.

لقد كان الظن في المصريين أنهم من الشعوب الإفريقية المتأخرة التي ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وحكم عليهم بالخضوع والخنوع للاستعمار الأوربي، وأن الاحتلال البريطاني قد نهض بالأمة المصرية، وهذبها وعلمها، وسلك بها سبيل الرقي

والحضارة، وأنها راضية بالاحتلال البريطاني مغتبطة به؛ ولكن المواضيع التي طرقها أعضاء المؤتمر، وتولوها بالدرس وعرضوها أروع عرض باللغة الفرنسية، أو الإنجليزية أو الألمانية، قد أنارت أذها ن الأوربيين وطالعتهم بحقائق الأحوال في مصر، ومبلغ ما تعانيه من الاحتلال البريطاني؛ فعلموا أن مصر قد سلكت سبل الحضارة والقوة والسلطان منذ عهد محمد علي، وأنها خطت في هذه السبل خطوات واسعة، وصارت دولة عظيمة مترامية الأطراف، وظلت كذلك إلى أن منيت بالاحتلال الإنجليزي، فتقلص عنها ظل العظمة والاستقلال وضعف شأنها بتأثير التحكم الأجنبي، وأنها برغم السيطرة الأجنبية لا تفتأ تجاهد في سبيل حريتها وتناضل عن استقلالها، فهي جديرة بأن تنال احترام الأحرار من مختلف الأمم، فالمؤتمر الوطني كان خير إعلان عن مصر المتحضرة المجاهدة في سبيل أشرف المقاصد وأنبل الغايات.

وكذلك كان للمؤتمر أثر بعيد في مصر؛ فقد أنار الأذهان والبصائر، وكشف عن عمل الاحتلال الأجنبي، وعرف الجيل الجديد من المواضيع التي ألقيت فيها ونشرها (العلم) بأكملها، مبلغ تأخر البلاد في عهد الاحتلال، فازداد تعلقًا بالاستقلال، كما ازداد يقينًا بأن الجلاء هو رمز الاستقلال الحقيقي وعنوان المجد القومي الصحيح.

ولقد كان من فضل هذا المؤتمر، أن أثارت المواضيع التي طرقها اهتمام السياسيين والمؤلفين الأوربيين، ووجهتهم إلى فهم المسألة المصرية على حقيقتها، وكشفت لهم عن أباطيل ومفتريات وقرت في أذهانهم بتأثير الدعاية الاستعمارية، فأخذت الحقائق والبراهين تبدد سحب الكذب والتضليل، ليظهر من ورائها نور الحق ساطعًا.

وظهر في ختام تلك السنة (نوفمبر سنة ١٩١٠م) كتاب جديد بالإنجليزية عن القضية المصرية، يدل اسمه (دمار مصر) EGYBT S RUIN على أن الغرض منه وصف حقيقة الحال فيها ومبلغ ما أصابها من الضر والحيف في عهد الاحتلال البريطاني، ومؤلفه هو المستر تيودور روذستين، الذي كان من قبل محررًا بجريدة ذى إجبشيان

استاندارد[١] ومراسلها في لندن، وكتب مقدمة هذا الكتاب صديق مصر الحر المستر ويلفر دبلنت، فجاء إلى جانب كتاب «التاريخ السري للاحتلال» الذي أخرجه المستر بلنت نفسه سنة (١٩٠٨م)، من خير ما ألف في المسألة المصرية حسن بيان وصدق حديث.

وصفوة القول أن مؤتمر بروكسل كان من أجل الأعمال التي تفخر بها الحركة الوطنية.

أعمال الفقيد في أوربا بعد المؤتمر

عاد المترجم إلى باريس بعد انتهاء المؤتمر، وأخذ يشرف على إعداد مجموعة أعمال المؤتمر باللغة الفرنسية وطبعها، وبعد نشر في الصحف عدة أحاديث عن القضية المصرية، شخص إلى برلين في (أكتوبر سنة ١٩١٠م) للاستمرار في جهاده، ورفع صوت مصر في جميع عواصم أوربا، وقد شجعه على الذهاب إلى العاصمة الألمانية حضور بعض الأعضاء الألمان مؤتمر بروكسل، وما أظهروه من العطف النبيل على القضية المصرية، ويرجع الفضل في حضورهم وتعضيدهم إلى المرحوم الدكتور محمود لبيب محرم، الذي أقام في مونيخ عدة سنوات، خدم فيها الحركة الوطنية بكتاباته العديدة وخطاباته النفسية التي كان يلقيها في المجتمعات الراقية أجل خدمة، وقد ذكر عنه الفقيد أنه كان من أكبر العاملين على نجاح المؤتمر، بماله وسعيه لدى كبار الألمان ليشهدوه، وبالنشر عنه في أكبر جرائد ألمانيا، وقد حضر إلى باريس لهذه الغاية خاصة، وسافر مع الفقيد إلى بروكسل، وقد حضر جميع جلسات المؤتمر، وكان يترجم الخطب الألمانية إلى الفرنسية والعربية، ولما جاء المترجم إلى ألمانيا عرفه بكثير من رجال الصحافة والسياسة، وبفضل ذلك نشرت له جرائد ألمانيا وفي مقدمتها (برلينر تاجبلات) و(برلينر نوسته نخرختن) و(مونخن نوسته نخرختن) التي تصدر في

(١) التي أنشأها مصطفى كامل سنة (١٩٠٧م). (راجع كتابنا عن مصطفى كامل، ص٢٤٥، من الطبعة الأولى، وطبعات تالية).

مونيخ أحايث عدة عن المسألة المصرية، ودعاه جماعة من رجال السياسة إلى اجتماع عقدوه ببرلين، فلبى الدعوة يرافقه الدكتور محمود لبيب محرم، وكان موضوع الاجتماع البحث في المسألة المصرية، فوقف الدكتور وايجلت WEIGELT الذي كان من ضيوف مؤتمر بروكسل، وتكلم عن مسألة مصر وأهميتها، وعن الحركة الوطنية وقيمتها.

ثم وقف الفقيد، فشكر الحاضرين على تهيئة هذا الاجتماع، وبعد أن شرح لهم المسألة المصرية ومطالب الوطنيين شرحًا مستفيضًا، أماط اللثام عن أعمال الإنجليز في المالية والتعليم، وأعقبه البارون فنلند WINDALAND ياور أول ملك بافاريا، وتكلم عن عظم شأن المسألة المصرية، وما في قناة السويس من المصالح الهامة الدولية، وقال: إن مصر مفتاح إمبراطورية الهند، وإن هذا هو سبب ما تلقاه من المصاعب في سعيها إلى الجلاء. وأشار إلى مشروع الإنجليز في إيجاد خلاف عربية تكون طوع إرادتهم، وأن هذا المشروع لن يتحقق مطلقًا.

ونشرت كبريات الصحف الألمانية خلاصة هذا الاجتماع وأهميته، وما ألقى فيه من خطب، وما دار فيه من بحوث، وبُعثت المسألة المصرية في ألمانيا بفضل جهود الزعيم، ولم يكن لها من قبل عهد بها، فتسابق سياسيوها وصحفيوها إلى الكتابة عنها.

وأعاد جهاده في برلين ذكرى مؤتمر بروكسل، فنشرت جريدة (لينتسجر نوسته ناجرختن) مقالًا شائقًا عن الحركة الوطنية المصرية، ذكرت فيه خلاصة تاريخها ودافعت عن مطالب مصر وأيدت مبدأ (مصر للمصريين).

وغادر الفقيد برلين (يوم ١٤ نوفمبر)، فعرج على فيينا، فبودابست فالأستانة؛ إذ بلغها يوم (١٧ نوفمبر)، وأقام بها نيفًا وثلاثة أسابيع، اتصل خلالها بالدوائر السياسية والصحافة على النحو الذي سعى إليه في العام الماضي (ص١٢٩).

وكان لا يفتأ إلى جانب أحاديثه في الصحف، ومقابلاته لرجال السياسة، يكتب المقالات المستفيضة في وصف رحلاته والمدن التي مر بها، ومعالم الحضارة التي

شاهدها، فكانت هذه المقالات وحدها مجموعة بحوث علمية تاريخية وطنية قيمة، تنير أذهان القراء، وتوسع مداركهم، وإن كتابة هذه المقالات المستفيضة -إلى جانب مشاغله الهامة- لهي دليل حي على بعد همته، وقوة عزيمته، وجلده على العمل، وإنه كان على الدوام مشغول الفكر والوقت بكل ما يعود على الوطن بالخير والفائدة، في كل ناحية من نواحي الصالح العام.

عودته إلى مصر

(ديسمبر سنة ١٩١٠م)

عاد الزعيم إلى مصر، فبلغ الإسكندرية (يوم ٢٨ ديسمبر ١٩١٠م)، عاد إلى الوطن بعد أن ظل بعيدًا عنه نحو ثمانية أشهر قضاها متنقلًا بين عواصم أوربا، مجاهدًا مدافعًا عن القضية المصرية، عاد بعد أن بذل خلال هذه الفترة ما بذل من الجهود في سبيل رفع شأن مصر في أعين العالم المتحضر، فقد وقف خطيبًا في باريس، ثم في ليون، ثم في لندن، يعلن للرأي العام حقيقة المطالب الوطنية، ويترجم عن آمال مصر، ويدافع عن حقها في الحرية والاستقلال، ثم حضر مؤتمر السلام في استوكهلم، ورفع صوت مصر بين مجموعة الأمم التي اشتركت فيه، ورجع إلى باريس يعد معدات المؤتمر الوطني الذي اعتزم عقده فيها، حتى إذا منعته الحكومة الفرنسية بادر إلى عقده في بروكسل، وبعد انتهاء المؤتمر عاد إلى باريس، ثم قصد إلى ألمانيا، ليبعث المسألة المصرية في صحافتها ودوائرها السياسية، وعرج على الأستانة لكي يحكم روابط الود بين مصر وتركيا، ويحبط مساعي إنجلترا في دفع تركيا إلى الاعتراف بالاحتلال. هذا إلى أحاديثه في مختلف الصحف الأوربية، ومقالاته في الصحف المصرية عن مشاهداته وخواطره وملاحظاته في رحلاته، وما تضمنته من الدروس الوطنية والآراء السديدة، قام الزعيم بهذه الجهود الموفقة مدة غيبته عن الوطن، فلا غرو أن قوبل من الشعب عند عودته بأعظم مظاهر التقدير والحفاوة، فاستقبله الوطنيون بالإسكندرية استقبالًا رائعًا يوم ٢٨ ديسمبر على ظهر الباخرة، وعلى رصيف الميناء، وفي الطريق إلى

فندق (متروبول) على شاطئ البحر، ثم منه إلى المحطة حيث استقل القطار في اليوم نفسه، وهناك احتشدت الجماهير، وتعاقب الخطباء يشكرون الزعيم على جهاده للوطن، فرد عليهم بالكلمة الآتية:

«إنَّ كل مصري -وأنا في المقدمة- مدين لبلاده بروحه وماله وجسمه، وفكره وكل قوته، فإذا افتدى الإنسان وطنه بكل ذلك لم يقم إلا بالواجب، والقيام بالواجب لا يستحق حمدًا ولا شكرًا؛ بل إن إن الذي يتأخر عنه يستحق انتقادًا شديدًا؛ لذا أرى نفسي غير مستحق لشيء مما قمتم به من المظاهر الجميلة التي لا أنساها».

ثم أخذ يوصي الحاضرين بالاتحاد والائتلاف، ونبذ الشقاق والخلاف، فهتفوا جميعًا بحياته، وحياة الاتحاد، حتى تحرك القطار، واستقبل بمظاهرات الحفاوة والحماسة في محطات سيدي جابر، ودمنهور وكفر الزيات وطنطا.

وكنت ممن استقبلوه في طنطا مع وفد جاء خصيصًا من المنصورة للاشتراك في استقباله، فحياني أحسن تحية، وهنأته بجهاده المجيد، وابتهجت لرؤيته بعد طول غيابه، وسررت لما رأيته متمتعًا بموفور الصحة وكامل النشاط.

ولما وصل إلى محطة العاصمة، كانت تموج بالجموع الزاخرة التي جاءت لاستقباله، فتعذر عليه أن يشق طريقًا وسط الصفوف المتراصة، حتى اضطر أصدقاؤه أن يتخذوا له طريقًا من خلف المحطة؛ لكي يمكنوه من الخروج منها، وما أن علم المستقبلون بخروجه حتى هرعوا إلى منزله بشارع شبرا رقم ٥٣، وهناك قابلوه فرحين مستبشرين، وتعاقب الخطباء مرحبين بعودته شاكرين له حسن جهاده، ورد الزعيم عليهم شاكرًا لهم جميل عواطفهم، فكان هذا اليوم يومًا مشهودًا في تاريخ الحركة الوطنية. ولقد تأثر الزعيم من هذه الوطنية الصادقة، وشكر الأمة على نبيل شعورها بكلمة بليغة تفيض وطنية وإخلاصًا؛ قال فيها:

«إلى الشعب الكريم:

يعجز قلمي ويقصر لساني عن تأدية واجب الشكر للأمة المصرية الكريمة على مظاهر العطف التي قامت بها تكريمًا لأحد أبنائها، ولقد كنت أرجو ألا يعنى مصري بمقابلتي والاحتفاء بمقدمي؛ لأني لم أفعل شيئًا فوق ما يجب على كل وطني فأستحق بذلك الشكر والثناء، وما أنا إلا أحد خدام الأمة الذين يدينون لبلادهم بحياتهم، وليست هذه الحياة إلا وقفًا على الوطن العزيز، فإذا وهبته إياها وضحيتها في سبيل إسعاده لا أكون قد قمت إلا بالواجب المفروض على كل مصري منا، ومن يتنحى عن القيام بواجب الوطنيين لأي سبب من الأسباب لا يستحق أن يتمتع بسعادة الانتماء إلى وطن من الأوطان، كما قال وزير خارجية السويد في مؤتمر السلام الأخير. على أني لن أنسى أبد الدهر تلك المظاهرات الجليلة التي تفضل بها الشعب المصري الكريم، وأني لا أعتبرها موجهة إلى شخصي فقط؛ وإنما هي آية من آيات وطنية الشعب الصادقة، الدالة على حياته ورقي شعوره، الناطقة بوجوده وجهاده. وفقنا الله جميعًا لنيل الحقين الشرعيين الذين نسعى في سبيلهما؛ وهما الجلاء والدستور، إنه لما نقول سميع مجيب».

محمد فريد